

الأدب العربي بين التراث والمعاصرة

بقلم حنفي بن عيسى

موضوع البحث : الاديب العربي بين التراث والمعاصرة
البلد : الجزائر
الكاتب : حنفي بن عيسى
عنوان البحث : الاديب العربي بين التراث والمعاصرة

المقدم حضاريا ، فنحن نستورد اكثر مما ننتج .. وبعبارة اخرى ،
فنحن ننتمي الى حظيرة الشعوب المستوردة .. وبطبيعة الحال ،
نستورد السلع والافكار .. الا اننا في اغلب الاحيان نكتفي باستيراد
السلع الجاهزة ، ولا نكلف انفسنا اية مشقة لسلوك دروب الفكر
الذي انتج تلك السلع .

وهذا الموقف من الحضارة المعاصرة له عواقب وخيمة في مجال
الادب . فهذه العقلية السائدة عندنا في التباهي بمصنوعات غيرنا ،
والتنافس على كسبها ، جعلت منا شعبا يستهلك منتجات الحضارة .
وقد اصبح سلوكنا خاضعا في كثير من مظاهره لهذه العقلية
« الاستهلاكية » اذا صح التعبير ، واخوف ما اخاف ان يكون الادب
نفسه قد تحول الى ادب استهلاكي باتم معنى الكلمة .

وانا لا اقول ان كل ما ينتج عندنا يعد من النوع الرخيص ومن
البضاعة المزجاة . فيما لا شك فيه انه يوجد اليوم في العالم العربي
ادباء لا يقلون مقدرة واصالة عن غيرهم من مشاعر الكتاب في العالم ..
وانما اقول انني اخشى ان تكون قد سرت الى ادبنا تيارات زائفة
شبيهة باللوثة التي حذر منها حافظ ابراهيم في مطلع هذا القرن ،
حينما قال دفاعا عن اللغة القومية :

سرت لوثة الاعجام فيها كما سرى لعب الافاعي في مسيل فرات
ان الشيء الاهم بالنسبة الى عقلية المستهلك هو اللحظة الراهنة .
فكما ان الجائع مشغول البnal باشباع بطنه ، فكذلك الكاتب يتحول
الى شخص همه الوحيد حشو الادمغة ، ويعني بالسفاسف من القول ،
والنوادير من الحكايات التي ليس القصد منها سوى التسليه وقضاء
الوقت فيما لا يقني .

من الممكن ان ينساق الاديب وراء الحلول السهلة ، وان تسول
له نفسه الاقتداء بالتاجر والمهندس والطبيب والمحامي ، وغير هؤلاء
من أصحاب المهن الحرة . ولقد يقول في نفسه : ان المهنة التي امارسها
تستلزم من العناء وتتطلب من الذكاء ما يتطلبه ويستلزمه عمل الطبيب
والمهندس . فالى متى اظل محروما من نعم الحياة ؟ .. والغريب انه
يجد من المجتمع حوله تشجيعا على المضي في السبيل : فاعلم القراء
لا يميلون الا لما يسمى بالمطالعات الخفيفة .. والناشر سوف يقنعسه
بان الكتب البسطة وروايات الجيب والقصص البوليسية ومغامرات
الجوايسيس ، اكثر رواجاً من المؤلفات التي لا يزال بعض « المترمطين »

كلما فكرت في وضعية الاديب عندنا انذكر كلمة قالها ابوالطيب
المنبهي ، منذ حوالي احد عشر قرنا ، في موقف الساخط على الدهر
الذي ارغمه - وهو الانسان الابي الانوف - على مدح قوم لا قيمة لهم .
فقد قال ذلك الشاعر المغوه :

الى كم ذا التخلف والتواني وكم هذا التماذي في التماذي ؟
وشغل النفس عن طلب المعالي ببيع الشعر في سوق الكساد

ولعله ، من القدامى ، الشاعر الوحيد الذي تمردت نفسه على ما
سماه صراحة بعملية البيع والشراء ، في سوق تعميها الكساد وليس
فيها من يلقي اليك السمع ، او يلتفت الى ما تقول .. ومتى بيعت
الكلمة ، فقد ذهبت قدسيته ، وصوحت روضة الشعر واقفرت دوحه
الادب .

لقد اشار المنبهي الى لون من الادب لم يعد له ، في اغلب
الظن ، وجود في البلاد العربية ، واعني به ادب الارتزاق : انه قائم
على التمسح باعجاب الطبقة المترفة ، والتفني بامجادها والتقرب من
افرادها . اما اليوم فان الاديب - لحسن الحظ - لاتلجئه الضرورة الى
الحالة المحزنة التي وصفها بعضهم ممن هجا المنبهي بالعبارات التالية :
اي فضل لشاعر يطلب الفضل من الناس بكرة وعشيا

عاش حينما يبيع في الكوفة الماء وحينما يبيع ماء الحيا
لقد اصبح الشغل الشاغل بالنسبة الى الافطار النامية وشعوب
العالم الثالث هو الازدهار والتقدم المادي ، الا ان هذه الاقطار
والشعوب ليس لها الا سهم قليل في الابتكار والاكتشاف . ولذلك فان
هذه الرغبة الملحة في الازدهار والتقدم كثيرا ما تنقلب الى نزعة
شبيئية ، واعني بهذه العبارة حرص الدول المتخلفة على كسب جميع
« اشياء » الحضارة ومصنوعاتها ، كالسيارة وجهاز الاذاعة وما الى
ذلك .. انه لمن الغريب حقا ان يقرب عن اذهان البعض بان الرفاهية
ليست كل شيء في الحياة وان لباس البذلة الانيقة وتوفير المرافق
الحديثة لا يكفي لكي يرقى بالانساب من وضعية التخلف الى وضعية

حتى تكون تلك اللحظة قد انقضت وحلت محلها اللحظة التالية ومعنى ذلك ان فلسفة العرب قائمة على الصيرورة اي على تحقيق المصير ، انطلاقا من الماضي الذي يحمل القيم الثابتة ، وانطلاقا كذلك من الحاضر الذي يتضمن المستقبل وينصب فيه .. على ان الحاضر انما يمثل في عمر الزمان نقطة تحفز الى المستقبل لان العربي انساني لا يرضى بحاضره ، بل يظل دانسا محققا بالافق ، باحسا عن معالم المستقبل ، وطالبا « للمعالي » على حد تعبير المتنبي .

ان الحاضر يتجسم في وضعية لا بد من تجاوزها الى وضعية احسن منها ، فاذا ما بلغت تلك الوضعية الجديدة ، فلا بد من السعي لبلوغ البديل ، فلكذلك المعاصرة تفرض على الانسان العربي ان يكيف وضعه بحس مقتضيات الاحوال .. واذا نظرنا الى تاريخ الفكر العربي الاسلامي ، فاننا نجد حافلا بالعبارات الدالة على سعي المفكرين العرب لتغيير الواقع وتحسين المعيشة وتصحيح الوضع ... ومن تلسك العبارات : « الاجتهاد والمناقشة والمجادلة والمناظرة والمحاورة » وكل عبارة من هذا ، العبارات تحمل في طيها روح الثورة الثقافية .

✱ ✱ ✱

ان الجزائر التي خاضت بالامس غمار الثورة المسلحة المظفرة ، ترى ان تلك الثورة المباركة لا تكتمل الا اذا ساندتها ثورات ثلاث هي : الثورة الثقافية ، والثورة الزراعية والثورة الصناعية . وانا اعتقد ان كل واحدة من هذه الثورات الاربعة هي معركة المصير بالذات ، لانا تعبر عن عدم الرضى بالحاضر ، وتدل على ديناميكية الفكر العربي وتكشف عن محاولة للحاق بركب الانسانية .

ويظن انبعض ان مفهوم ، الثورة الثقافية ، مستورد ، وان عبارات « النهضة والتوعية والتمسك بالشخصية ، وتصحيح الوضع الثقافي ، والصراع العقائدي ، والتبعية الثقافية » ، ان هي الا كلمات منسوخة اذا صح التعبير ، اي انها وضعت على غرار مثيلاتها الاجنبية وربما نسي اكثر الناس ان الثورة الثقافية التي احدثتها العرب والمسلمون منذ اربعة عشر قرنا ، ليس لها مثيل في تاريخ البشرية .

بطبيعة الحال ، لا يتسع المقام للدخول في تفاصيل هذا الموضوع ، وانما اكتفي بالاشارة الى ان الآية الكريمة التي تقول : « اقرأ باسم ربك الذي خلق ، خلق الانسان من علق ، اقرأ وربك الاكرم ، الذي علم بالقلم ، علم الانسان ما لم يعلم » هي التي دفعت العرب في انطلاقة عبر الزمان والمكان ، لم يشهد لها التاريخ مثيلا .. ففي تلك الآية ، بصيغة الامر الذي وردت به ، حث صريح على القراءة ، وارشاد الى سبيل المعرفة واشارة الى ان صرح الحضارة لا يمكن ان يبني الا اذا استعمل القلم (علم بالقلم) ، اي ان الحضارة لن تزدهر الا اذا انتقلت البشرية من مرحلة الرواية الشفهية الى مرحلة تموين المعلومات ، وتسجيلها على القرطاس .

ولا ننسى في هذا المجال ان هذه الايات هي اول ما نزل مسن القرآن ، وذلك دليل قاطع على اهمية القراءة في الحياة .

ان المعاصرة - واعني بها الجهود التي يبذلها المرء ليكون ابن عصره - اصبحت تفرض علينا ان نتتبع باستمرار ما يجري في العالم من احداث ، وان ندرس القضايا المعروضة علينا ، وان نستزيد من العلم حتى لا نتخلف عن ركب الحضارة ، وان نرفه عن انفسنا بمطالعات جذابة ... وهكذا ترى الواحد من ابناء هذا العصر ، يطالع الجرائد والمجلات ، وينكب على دراسة التقارير والملفات ، ويفرأ القصص والروايات والمسرحيات ، ويقبل على كتب الثقافة والعلوم ، اصف الى ذلك كله ما تتلقاه من رسائل ، وما تصادفه في الطريق من لافتات وما نراه ملصقا على الجدران من اعلانات ، فلا يجد مناصا من قراءة كل ذلك ... وهذا الامر يسوجب على من يريد ان يكون ابن عصره ، ان يتوخى طريقة في القراءة تمكنه من ان يطالع اكبر قدر ممكن ... وقد وجد بعض الباحثين ان السرعة في القراءة يمكن ان تتحسن بالتدرب

يكتوبونها فلا يجدون من يقرأها .. ورجال الصحافة والاذاعة والتلفزيون سوف يشعرون بانه لا سبيل الى قبول انتاجه الا اذا توفرت فيه بعض الشروط ، وكتب على نبط خاص مقرر سلفا . اصف الى كل هذا ان الادب اصبح اليوم مصنعا (بتسديد النون) باتم معنى الكلمة . فقد تسربت اليه اساليب لم تكن تستخدم الا في مجال النشاط الاقتصادي كاصدار النشرات المبسطة والافتباس والاختصار وما الى ذلك ... بل اصبحت بعض العاديات دولية لشراء حقوق الترجمة قبل صدور الكتاب في اللغة الاصلية ، ولا يكاد يصدر ذلك الكتاب حتى تتخاطفه دور النشر بالمزايدة في الثمن .

والترجمة في حد ذاتها ، بصرف النظر عن نواحيها الايجابية ، لا تخلو من جانب استهلاكي ، لانا عملية استيراد للفكر الاجنبي بقصد الاستهلاك المحلي ، على غرار ما نستورد السيارات تماما .

ولعلمكم توافقون بعد هذا اننا لم نحز في هذا المجال تقدما كبيرا على عصر المتنبي . فادب الارتزاق الذي كان سائدا في عهده وادب الاستهلاك السائد اليوم في كثير من الاقطار انما هما صنوان متشابهان يتحكم فيهما قانون العرض والطلب ، ونشتم منهما رائحة المنفعة العاجلة وينسم كل منهما بطابع الزيف والتفاهة ، وليس في اي منهما شيء من الصدق والاصالة .

ولكننا نتساءل بعد هذا كله : هل خلق الانسان لتكديس الازواق وجمع الكتب من غير تمحيص بين جيدها وزائفها ، ام خلق لتخليد ذكره في هذه الحياة بالعمل الصالح النافع له ولمجتمعه ؟ وهنا آتي الى الحديث عن لون اخر من الادب ، هو الذي اراه اجدر بهذه الامة ، واليق بها في هذه الفترة الحرجة من تاريخها . وهذا الادب اسميه « ادب الظروف الطرئة » او « ادب الاحداث الجسام » او يسميه البعض بادب النضال او ادب الالتزام .. ومهما اختلفت التسميات ، فان الشيء المؤكد هو ان معركة المصير في حاجة الى ان يساندها الكتاب والشعراء والفلاسفة والمفكرون لان الاحداث التي يمر بها الوطن العربي يحتم على الاديب ان ينهض بمسؤولية عظمى في التوعية ، وفي معركة المصير بالذات .

ولكنني ، قبل الخوض في هذا اللون الثالث من الادب ، احب ان امهد له ببعض الخواطر ، فيما فهمته من عبارتي « معركة المصير » . ان كلمة « المصير » تتضمن معنى الصيرورة في الزمان ، ولذلك فسوف استنرد قليلا لانهذا عن مفهوم الزمان عند العرب .. فلامر ما ، لا يوجد في لغة الفصاح سوي الماضي والمضارع ، بينما نجد ان الشعوب الاخرى تحدد فكرة الزمان بالماضي والحاضر والمستقبل .. ولكن المسألة لا تفد عند هذا الحد ، بل تختفي وراءها فلسفة عميقة ان اراد ان يبحث في مكونات الالفاظ ان ما مضى من الافعال والاعمال انما يمثل بالنسبة الى تاريخ الحضارة ، التراث الثقافي ، لان تلسك الافعال ان هي الا اعمال اجدادنا وتصرفاتهم وانماط سلوكهم في هذه الحياة .. وكما ان الفعل الماضي في عرف النحاة ، مبني ، اي ملازم لحالة واحدة ، فكذلك التراث الثقافي ، يمثل القيم الثابتة التي لا تتغير ، ومن واجب الانسان ان يحافظ عليها ، وان يقاوم كسل محاولة لطمس معالمها ، لانا بمثابة الاساس في بناء صرح الحضارة .. وكما ان الفعل المضارع في عرف النحاة معرب ، اي متغير الاخر ، فكذلك الاعمال التي تقوم بها في الحاضر او في المستقبل لا تثبت على حالة واحدة ولانها متعلقة بالنية في مواصلة المشروع الى النهاية ، او العود عنه كلية او التراجع في بعض اجزائه .

ان مفهوم المضارعة عند العرب شيء طريف حقا ، وذلك ان العرب بموجب حتمية التاريخ الزاحف ، وبمقتضى الفلك الدائر ، والزمان لا يقيدون انفسهم بالحاضر ، ما دام هذا الحاضر صائرا الى المستقبل المتجدد السائر .. فالواحد منا لا يكاد يمي نفسه في اللحظة الزاهنة

والمران ، وهذا موضوع اخر ، ويكفي ان نقول بان المطالعة اصحت من اوكذ الواجبات بالنسبة الى معركة الصير ... ولا بد هنا من الاقرار بحقيقة مريرة ، وهي اننا لا نزال مقصرين في المطالعة ، واننا نعاني ازمة قراء .. او ليس من المؤسف ان ترى بعض انصاف المثقفين عندنا ، يقبلون على شراء مختلف انواع الاثاث ، وتجهيز بيوتهم بمختلف الادوات المصرية ، ومواعين الطبخ الحديثة ، والات التسلية ، الا انك تراهم يهملون ركنا اساسيا في البيت ، الا وهو المكتبة ؟ .. ان اكثر الناس ، للأسف الشديد ، يتباهون بما لديهم من كتب .. ان تأسيس المكتبة في كل بيت ، يعود بلادنا الى تقاليدنا العريقة في حب العلم ، ويخلق جوا مناسباً للثورة الثقافية .

ان الادباء هم جنود هذه الثورة وطلائعها ، وروادها . وينبغي ان يقرموا بدور اساسي في التوعية . وكيف يكون للاديب جمهور يتابع انتاجه اذا لم يكن الشعب متعلما واعيا ؟ ولذلك فالثورة الثقافية قائمة اساسا اولاً : على نحو الامية بجميع اشكالها ، وثانياً على مقاومة الخرافات والاباطيل التي الصقتها جاهلية القرن العشرين بالديسن والتراث القومي ، وثالثاً على تصحيح الوضع الثقافي الراهن ، خاصة في الاقطار التي عرفت ليل الاستعمار ، وتعرضت للغزو الثقافي ونكبت في اعز شيء لدى الانسان ، الا وهو اللسان ، ورابعاً على التفتح .. واحب ان اشير الى ان التفتح لا يمكن ان يكون سليم العواقب الا اذا حصل في اتجاهين : تفتح على الداخل وتفتح على الخارج ، وذلك ان كثيرا من الناس يتوهمون ان التفتح عملية شبيهة بفتح النافذة لكي تطل منها على الخارج ، وانا اقول بان عيوننا ينبغي ان تكون مفتحة قبل كل شيء على تراثنا القومي : فكل ما يلهج به الشعب من اغان وامثال وحكايات ، وقصص تروي البطولات ، كل ذلك ينبغي ان يعتبر من الروافد الزاخرة التي تصب في نهرا الخالد الا وهو لغة الضاد . اما موقف الاستملاء والترفع على التراث الشعبي ، فقد استنكره ابن خلدون بعبارات لا تزال حتى اليوم تحتفظ بجديتها وطرافتها ، فهو يقول دفاعاً عن اللغات السائدة في عهده :

« ولا تلتفتين الى خرفشة النحاة ، اهل صناعة الامراب ، القاصرة مداركهم عن التحقيق ، حيث يزعمون ان البلاغة لهذا العهد ذهبت ، وان اللسان العربي فسد ، اعتباراً بما وقع في اواخر الكم من فساد الاعراب الذي يتدارسون قوانينه .. وهي مقالة دسها التشيع في طباعهم والفاها القصور في افئدتهم »

ان الاديب الحق لا ينبغي ان يكون مقطوعاً عن الشعب . ولذلك يجب ان يتفرغ لمهنته ، والا فانه سوف يتناول الموضوعات الادبية من زاويته كموظف او كاستاذ او كطبيب الخ .. فالاديب الحق لا يتردد اذا اقتضى الامر ، في الانخراط للعمل في المصنع ، او في المزرعة ، او في اي مكان اخر يمارس فيه مهنة يدوية يمكنه من تلمس الواقع وتحسس آلام الشعب وآماله وافراحه واتراحه . بطبيعة الحال يمكن للاديب ان يتخذ موقفاً اخر ، هو موقف المتفرج مما يقع حوله ، ولكن ما قيمة الاديب الذي يكتب بوصف المشاهد اليومية او سرد الاحداث الخاصة او العامة ؟ وما قيمة الاديب الذي يكتب بالوصف والسرد ويحاول ان يزيد من عنده شيئاً من الشرح والتفسير والتحليل ؟ ان كل هذه المواقف تعتبر انهزامية ، وفيها تهرب من تحمل المسؤولية فلا بد اذن من المساهمة في عملية التحول الاجتماعي وفي بناء صرح الامة .

اما التفتح على الخارج ، فهو مكمل للفتح على الداخل ولا يستقيم بدون ، وذلك ان الانسياق بدون تحفظ وراء الاتجاهات الامية فيه خطر كبير على تماسك الشخصية القومية ، ان هذا النوع من التفتح له محاذير اهمها ان الخارج هو دائما مصدر لحمولات التضليل .. فمن واجب الاديب ان يفضح بعض الاتجاهات السائدة عندنا ، وخاصة منها تلك التي تدعو الى التبعية الثقافية ، بدعوى

اننا متخلفون في الميدان التكنولوجي .. وهذا لا يمنع من القول بان التفتح على الخارج شيء ضروري ، خاصة ان بعض الجواب مسن الحضارة ، كالتربية والدين والتكنولوجيا ، انشأت لدى الناس من مختلف الجنسيات ، العديد من المفاهيم الثقافية والحضارية المشتركة وعلى سبيل المثال ، فان الانسان الافريقي اخذ يخرج من بوتقته الضيقة ويدرك ان هناك زوجة تربط بين الافارقة السود ، وان هناك عروبة توحد شمل ابناء لغة الضاد ، وانه بعد هذا او ذلك ، توجد افريقية ينتمي اليها الافارقة مهما اختلفت اوطانهم . ولا شك ان المهرجان الثقافي الافريقي الاول الذي عقد بمدينة الجزائر عام ١٩٦٩ قد اتى بالدليل القاطع على ان مختلف الفنون التعبيرية ، من ادب ورسم وغناء ورقص وتمثيل ، تكشف عن تراث مشترك من المفاهيم .

وزيادة على هذا ، فان التفتح يفرض على الكاتب ان يتجاوب مع جميع العذبين في الارض ، فانيما كانت الحربة ذبيحة ، ينبغي ان يرتفع صوت الاديب منددا بالصهيونية والاستعمار والراسمالية وجميع القوى التي لا تزال حتى اليوم تطبق اساليب التعذيب الوحشي ، وتستعبد الشعوب ، وتعكر صفو العلاقات بين الامم .

وبعد ، فان القيم التي ضمنت للغة قريش الانتشار في المكان والديمومة عبر العصور والازمان ، ينبغي ان تكون للادباء العرب خير رائد في مساعيهم للتفتح على العالم بما يعتمل فيه من افكار ، وما يتصارع فيه من مذاهب وعندئذ يدكن لهم ان يقولوا مع الشاعر الذي قال :

نبني كما كانت اوائلنا تبني ، ونفعل فوق ما فعلوا

حنفي بن عيسى

الجزائر

روايات وقصص

من منشورات دار الآداب

٧٥٠	نجيب محفوظ	اولاد حارثنا
٤٠٠	د . سهيل ادريس	الحي اللاتيني
٤٠٠	د . سهيل ادريس	الخنقد الفميق
٤٠٠	د . سهيل ادريس	اصابنا التي تحترق
٢٠٠	فاذة السمان	ليل الغريب
٢٥٠	محمد ابو المعاطي ابو النجا	الناس والحب
٢٥٠	يوسف شرور	زورل من دم
٢٥٠	ديزي الامير	ثم تعود الموجه
٢٠٠	فسان كنفاني	عن الرجال والبنادق
٢٠٠	د . عبدالسلام المعجلي	الخيل والنساء
٢٥٠	د . عبدالسلام المعجلي	فارس مدينة القنطرة
٢٥٠	يوسف الشاروني	الزحام
٢٥٠	سليمان فياض	احزان حزيان
٢٥٠	عبدالكريم غلاب	الارض حبيبتي
٢٥٠	عبدالله نيازي	اعباد
٢٥٠	محمد رؤوف بشير	رحلة الغلماش